

المزايا الفنيّة لبلاغة النبوية

فضل الله

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين،

وبعد:

فقد أرسل الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة ليقوم بمهمة واضحة محددة، وهي مهمة الدعوة إلى ما أنزله الله والبلاغ لهذا التنزيل بلاغاً مبيّناً، قال الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾⁽¹⁾ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾⁽²⁾. ومهمة الدعوة إلى الله تعالى والتبليغ والإرشاد تتطلب تفوقاً بيانياً وقدرة بلاغية خاصة، ليتحقق الهدف المنشود على الصورة التي يرتضيها الله تبارك وتعالى فيمن أرسله.

ومن أهم أدوات الإبلاغ ومن أولها، الكلمة البليغة المؤثرة التي تصل إلى القلوب وتؤثر على العقول فتحثهم على التفكير والتدبر، ولذا قال الله عز وجل: ﴿... وَعَظُّهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾⁽³⁾؛ لأن الكلمة تقوم بدور رئيسي في بناء الإنسان الفكري وتكوينه الروحي. وهناك صلة وطيدة بين الإنسان واللغة، فاللغة بُعد مهم من أبعاد الإنسان نفسه، وبمقدار ما يتحقق في الكلام من كمال لغوي وسمو أسلوب وبلغة قصوى يتحقق التأثير.

من المعلوم أن القرآن الكريم حجة من حجج النبوة، وهو إحدى معجزات محمد صلى الله عليه

1- سورة النور، الآية: 54، سورة العنكبوت، الآية: 18، وينظر كذلك سورة آل عمران، الآية: 2، سورة المائدة،

الآية: 92، سورة التغابن، الآية: 12.

2- سورة المائدة، الآية: 67.

3- سورة النساء، الآية: 63.

وسلم فهو معجزة بلاغية، وهو المعجزة الكبرى التي وقع بها التحدي. ومن ثم لا بد أن يكون صاحب هذه الرسالة من أفصح الناس لبيّن التنزيل الإلهي في صورة جميلة مؤثرة. وقد أراد الله تعالى أن يكل هذه المهمة العظمى والرسالة الكبرى إلى سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (4) ولهذا فقد أعد الله عبده محمداً صلى الله عليه وسلم إعداداً خاصاً وأهله لحمل تلك الرسالة تأهيلاً لا نظير له، وأتاح له من الأسباب الظاهرية والمعنوية ما يجعله متمكناً من وسيلة البيان على الوجه الأكمل، فجعله قادراً على أن يبيّن للناس ما أنزله الله تعالى من وحي عظيم في قول واضح جميل. لقد أتاح الله تعالى لنبيه منذ البداية أسباب الفصاحة والبلاغة، فهو من قريش (5) واسترضع في بني سعد، وعنده فطرة سليمة وفكر ثاقب طالما دفعه صلى الله عليه وسلم إلى التأمل والنظر. وقد عاش الرسول صلى الله عليه وسلم مع القرآن الكريم معاشة طويلة حتى صار القرآن جزءاً لا ينفك منه، تخلقاً في السلوك واتباعاً في البيان، فتمت له صلى الله عليه وسلم الفصاحة الكاملة الفريدة في الإبلاغ والإرشاد.

بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم:

لهذه الأسباب الفطرية الموهوبة والمكتسبة (6) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أفصح الناس جميعاً، وقد وهبه الله تعالى سليقة البيان واستقامة الطبع واستعداد الفطرة ودقة الحس وعمق التذوق وحسن الإفهام وحلو المنطق. وكان كلامه صلى الله عليه وسلم جامعاً لجميع المحاسن وبعيداً عن كل المساوي. وكانت عنده مقدرة فائقة على الاختراع والتشقيق لضروب الكلام، وتصوير المعاني بأروع صور، وابتداع الأخيصة التي لم تعرف في كلام العرب، وظلت بعده من المحسنات التي ينسج الناس على

4- سورة الأنعام، الآية : 24.

5- وقد صرح أبو نصر الفارابي في وصف لهجة قريش قائلاً: كانت قريش أجود العرب انتقاداً لأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعاً وأبينها إبانة عما في النفس". انظر: جلال الدين السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، المكتبة الأزهرية، مصر، 1325 هـ ج 1، ص 128، وانظر كذلك: عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، 1975 م، ج 1، ص 9، ولذا أكد سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه لإملاء المصاحف أن يكون الكتاب من غلمان قريش ويقول: "لا يملين في مصاحفنا إلا غلمان قريش وثقيف" المزهري، ج 1، ص 127.

6- كان مولده صلى الله عليه وسلم في بني هاشم، وهم ذروة قريش، سلاسة لسان، وفصاحة كلام، وساحة بيان وأحواله من بني زهرة، ورضاعه في بني سعد بن بكر، ونشأته في قريش، وتزوج خديجة وهي من بني أسد، وكل هذه القبائل خصّها الله تعالى بعرق في الفصاحة عريق، وسبب في البلاغة وثيق... وكان ذلك كله إعداداً من الله لنبيه، لينهض بآتم دعوة وأكمل رسالة.

منوالها ويدبجون كلامهم على مثالها، دون أن يقتربوا من حدها.

كانت بلاغة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم مضرب المثل وموضع الدهش ومحل الإعجاب من كل من سمعه وأنصت إلى ألفاظه تقطر رقة وتفيض عدوبة، وأصغى إلى معانيه تطل منها أروع الحكم، وتنبجس خلالها أصدق الأمثال، حتى لقد عجب من ذلك البليغ المنطوق علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: "يا رسول الله! نحن بنو أب واحد، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نعرفه فمن علمك؟ فقال صلوات الله وسلامه عليه: "أَدَبْنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي". وتعجب أبو بكر رضي الله عنه من فصاحة الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال له: "لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك، فمن أدبك؟ فقال عليه الصلاة والسلام: "أَدَبْنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي" (7).

وكان عليه الصلاة والسلام يعتز بما منحه الله من نقاء الفطرة وصفاء القرينة وخلابة المنطق ورجاحة الفكر وسجاجة الأسلوب، فيقول: "أنا أفصح العرب بيد أبي من قريش ونشأت في بني سعد ابن بكر" (8) وفي رواية "أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أبي من قريش" (9) وروى البيهقي في شعب الإيمان عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي أن رجلاً قال: "يا رسول الله! ما أفصحك! فما رأينا الذي هو أعرب منك؟ قال: حُقَّ لي فإنما أنزل القرآن عليّ بلسان عربي مبين" (10) وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه، صلى الله عليه وسلم قال: "بعثت بجوامع الكلم" (11).

وقد تكلم العلماء قديماً وحديثاً عن البلاغة النبوية وتفوق النبي صلى الله عليه وسلم على فصحاء العالم، وبيّنوا أسباب فصاحته وألوان بلاغته صلى الله عليه وسلم.

7- ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المطبعة الخيرية، مصر، ج 1، ص 4، وأبو عبد الله محمد بن عبد الباقي بن يوسف المالكي، شرح المواهب اللدنية، المطبعة الأزهرية المصرية، 1327 هـ، ج 4، ص 101، وأبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، الوفاء بأحوال المصطفى، دارالكتب الحديثة، مصر، 1386 هـ، ج 2، ص 456.

8- هم بنو سعد بن بكر وكانت هذه القبيلة من أفصح القبائل، وكان أطفال القرشيين يتبدون فيهم وفي غيرهم يطلبون بذلك نشأة الفصاحة، وإحكام اللهجة العربية وصحة النشأة، وحرية النزعة وما إليها ما هو الأصل في هذه العادة يتوارثونها في التربية من قديم. ينظر: مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دارالكتاب العربي، بيروت، ط 2، 1999 م، ص 285.

9- السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، 1325 هـ، ج 1، ص 127.

10- المرجع نفسه، ج 1، ص 126.

11- السيد محمد مرتضى الزبيدي، إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، دار الفكر، بيروت، ج 7، ص 112.

قال الجاحظ: "هو الكلام الذي قلَّ عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجلَّ عن الصنعة، ونزَّه عن التكلف... استعمل المبسوط في موضع البسط والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة وشيَّد بالتأييد ويسَّر بالتوفيق... ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً وأصدق لفظاً، ولا أعدل وزناً ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين عن فحواه من كلامه صلى الله عليه وسلم" (12).

وقال الإمام الخطابي⁽¹³⁾: "إن الله جلَّ وعزَّ لما وضع رسوله موضع البلاغ من وحيه ونصب منصب البيان لدينه، اختار له من اللغات أعربها ومن الألسن أفصحها وأبينها، وليباشر في لباسه مشاهد التبليغ وينبذ القول بأوكد البيان والتعريف، ثم أمده بجوامع الكلم التي جعلها رداً لنبوته وعلماً لرسالته، ليتنظم في القليل منها علم الكثير، فيسهل على السامعين حفظه ولا يؤودهم حمله" (14).

ويقول مجد الدين ابن الأثير: "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أفصح العرب لساناً، وأوضحهم بياناً، وأعذبهم نطقاً، وأسدهم لفظاً، وأبينهم لهجة، وأقومهم حجة، وأعرفهم بمواقع الخطاب، وأهداهم إلى طريق الصواب، تأييداً إلهياً ولطفاً سماوياً وعناية ربانية ورعاية روحانية" (15).
وقد لخصَّ أحمد حسن الزيات رأيه قائلاً: "إن بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم من صنع الله، وما كان من صنع الله تضيق موازين الإنسان عن وزنه وتقصر مقاييسه، فنحن لا ندرك كنهه وإنما ندرك أثره، ولا نعلم إنشائه وإنما نعلم خبره" (16).

حقاً لا يمكن إدراك كنه البلاغة النبوية لأن الله سبحانه وتعالى أعده فاء بمهمة منوطة به، ولقد تحمل الرسول صلى الله عليه وسلم هذه المهمة بأمانة، وأمضى حياته داعياً مبلغاً، وبذل أقصى جهوده

12- الجاحظ، البيان والتبيين، ج 2، ص 18.

13- هو الإمام أبو سليمان أحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (ت: 388هـ).

14- الخطابي، غريب الحديث، دار الفكر، دمشق، 1402هـ، ص 64.

15- ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، باب فتح مصر، ج 1، ص 4، وينظر في هذا الباب: كتاب الإمام محمد بن يوسف الصالحى الشامي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، 1394هـ، ج 2، ص 130. وينظر: الزمخشري، الفائق في غريب الحديث، تحقيق: علي محمد الجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط 2، ج 1، ص 11.

16- أحمد حسن الزيات، وحي الرسالة، دار الثقافة، بيروت، ط 6، 1973م، ج 3، ص 105.

مستخدماً مواهبه الفطرية والمكتسبة لأداء الأمانة المودعة من خالق السموات والأرض. وقول الرسول صلى الله عليه وسلم أثناء خطبة الوداع: "اللهم هل بلغت" يكشف مطاف تلك الرحلة البيانية الرائعة التي أمضاها الرسول صلى الله عليه وسلم واهتمامه بمهمة البلاغ واحتفاله العميق بالوفاء بها.

وتكرار هذه الجملة في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، لازمة عظيمة الدلالة في مقامها لأنها لخصت حياة كاملة في أيام معدودات؛ فما كانت حياة النبي صلى الله عليه وسلم كلها بعملها وقولها وحركتها وسكونها إلا حياة للدعوة والإبلاغ. من المعلوم أن الكلمة الطيبة بأسلوب جذاب ممتع منحة ربانية، لأنها تؤثر على المخاطب وتُحرِّك مشاعره وتثير عواطفه، وهي جزء أساسي أصيل في حياة الدعوة. ومن هنا جاء البيان النبوي في الحديث مثلاً للفصاحة البشرية في تألقها وروعة أدائها وحيوية تأثيرها؛ فهو مثال الاكتمال الأدبي والجمال الفني. والبحث في بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم غاية سامية، لأنه يتعلق بحياة الرسول كلها، والقراءة والتأمل والتدبر في حياة الرسول عبادة عظيمة.

ومن المعلوم كذلك أن الإحاطة الكاملة واستيعاب جميع الجهات لهذا الموضوع غاية لا تدرك، لأن الميدان فسيح والتفاصيل كثيرة ومتنوعة، وهي تتطلب جهوداً متواصلة ومكثفة من قِبَل الجامعات والمعاهد العلمية، فالجهود الجماعية والمسعى الجامعية تكون أكثر عمقاً وأنفع ثمرة.

وقد أردت أن أدلي بدلوى إلى المزايا الفنية للبلاغة النبوية بتقديم إشارات سريعة وجيزة مع الإيمان بأن الحديث النبوي سيزل مجالاً وميداناً رجباً لكثير من الدراسات المطولة والمعقدة لاستجلاء ما يزره به من جوانب غير محدودة من وجوه الإبداع، وارتياح ما يحفل به من آفاق لا تنتهي من ألوان السحر الحلال، وروائع الأسلوب السهل الممتع الممتنع.

المزايا الفنية للبلاغة النبوية:

بادئ ذي بدء لابد من الإشارة إلى:

- 1- أن الآثار البيانية التي ورثها المسلمون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزيرة ومتنوعة، لأنها عبارة عن الآثار التي صدرت طيلة ثلاث وعشرين سنة داعياً للإسلام مبيناً له وموضحاً لما أنزل الله عليه قولاً وفعلاً وتقريراً، وكان حديثه القولي مستمراً في كل وقت ومناسبة وحادثة إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى.
- 2- أن جوانب بلاغة الأحاديث النبوية لا تنتهي، بل هي تزداد جِدَّةً وتنوعاً حسب كثرة الدراسات

3- ووفرة البحوث وستظل كما قال مصطفى صادق الرافعي: "كلما زدته فكراً زادك معنى"⁽¹⁷⁾.
 وليس المقصود هو استقصاء المزايا الفنية للبلاغة النبوية، لأن هذا مستحيل لمثلي، وإنما هو إلقاء نظرة متعمقة على بعض المزايا الفنية كما أنها ليست مرتبة وفق اعتبارات معيّنة من حيث الأهمية والأولوية، إذ إنها وجوه مختلفة لشيء واحد.

1- البيان والوضوح:

إن الهدف الرئيسي للرسالة المحمدية - كما ذكرنا - هو إبلاغ رسالة الله إلى الناس على أتم وجه وأحسن طريقة، ولذا نجد أن الكلام النبوي يتسم بالوضوح التام والبيان الصريح، دون غموض والتواء. وكانت هذه الظاهرة طبيعية وبديهية لأسباب عديدة؛ فرسول الله صلى الله عليه وسلم كان مبتعثاً من الله لبيان ما أنزل الله تعالى وتوضيحه للناس ودعوتهم إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر⁽¹⁸⁾. والتفاصيل عن الأحكام التي تتعلق بالحياة والكون والإنسان والدنيا والآخرة تقتضي أن تكون واضحة بيّنة. ولذا كان صلى الله عليه وسلم يتكلم بكلام بيّن واضح، لو أراد مستمعه أن يعيده لأمكن ذلك، فتقول عائشة رضي الله عنها: "ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرد سردكم"⁽¹⁹⁾ هذا، ولكنه كان يتكلم بكلام بيّن فصل يحفظه من جلس إليه"⁽²⁰⁾ وفي سنن أبي داود عن عائشة رضي الله عنها أيضاً قالت: "كان كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم كلاماً فصلاً يفهمه كل من سمعه"⁽²¹⁾. وفي رواية عنها قالت: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث حديثاً لو عدّه العادّ لأحصاه"⁽²²⁾.

-
- 17- مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 8، ج 3، ص 8.
- 18- انظر الآيات: سورة آل عمران: 3، سورة المائدة: 67، 92، 99، سورة إبراهيم: 4، سورة النور: 54، سورة العنكبوت: 8، سورة التغابن: 12.
- 19- السرد: متابعة الكلام على الولاء والاستعجال به، وقد يراد به أيضاً جودة سياق الحديث، فكأنه من الأضداد. انظر: ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، ج 6، ص 232، والعلامة الشيخ أحمد رضا، معجم متن اللغة، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1959م، ج 3، ص 136.
- 20- أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، جامع الترمذي، المطبعة المجتبائية، الهند، ج 2، ص 205، وأبو داود سليمان ابن الأشعث بن إسحاق الأزدي السجستاني، سنن أبي داود، المطبعة النظامية، الهند، ج 2، ص 566.
- 21- سنن أبي داود، ج 2، ص 566.
- 22- صحيح البخاري، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم، مطابع دار الشعب، القاهرة، 1378هـ، الجزء 11، ص 402، وابن الجوزي، الوفاء بأحوال المصطفى، ج 2، ص 454.

وعن أم معبد قالت: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صمت فعليه الوقار، وكأن منطقته خرزات نظم يتحدرن، حلو المنطق لا نزر ولا هذر" (23).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تكلم رئي كالنور من ثنياه" (24).

وعلى الرغم من فصاحة أسلوبه وبلاغة كلامه قد يكرر الرسول صلى الله عليه وسلم كلامه ثلاثاً، روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تكلم بكلمة ردها ثلاثاً" (25)، وإذا أتى قوماً سلم عليهم ثلاثاً". وعنه: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعيد الكلمة ثلاثاً لتعقل عنه" (26).

وكان صلى الله عليه وسلم يتجنب جميع أسباب الغموض من التقعر في الكلام والإغراب في الحديث وفي طريقته في إفهام سامعيه. وهذه سمة بارزة في كل كلامه وبيانه. وهناك نصوص كثيرة تدل على ذلك، فمثلاً قال صلى الله عليه وسلم أثناء إعلانه نبوته: "إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم، والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة، والله لتموتنّ كما تنامون، ولتبعثنّ كما تستيقظون، ولتحاسبنّ بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً، وإنما لجنة أبدأ ولنائرُ أبدأ..." (27).

أو قوله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم الله تعالى، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، بحسب امرئ أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: ماله ودمه وعرضه، إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم" (28).

23- ابن الجوزي، الوفاء بأحوال المصطفى، ج 2، ص 454.

24- المرجع نفسه.

25- المرجع نفسه، ج 2، ص 453.

26- جامع الترمذي، ج 2، ص 705، وشمال الترمذي، المطبعة المجتائية، الهند، ص 15.

27- علي بن برهان الدين الحلبي، إنسان العيون في سيرة الأمين والمؤمن، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة 1384هـ/

1964م، ج 1، ص 459.

28- انظر: ابن الربيع الزبيدي، تيسير الوصول إلى علم الأصول، طبعة الحلبي، 1353هـ، ج 3، ص 18، والنووي،

رياض الصالحين، دار الكتاب العربي، بيروت، 1393هـ/ 1973م، ص 575.

ولا يخفى على المتأمل أن الرسول صلى الله عليه وسلم استخدم أسلوباً مبيناً واعتمد في الإبانة والوضوح على ألوان البيان وأدوات الإيضاح في التعبير عن المعاني من مثل التشبيه والاستعارة والكناية والأمثال... إلخ. كل ذلك في ألفاظ واضحة وعبارات مفهومة وصور قريبة.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعطي الكلام ما يستحق من اللهجة حتى إن ما يختلج في صدره كان يبدو على وجهه، وصفه جابر رضي الله عنه: "كان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه، كأنه منذر جيش يقول: صبّحكم ومساكم"⁽²⁹⁾.

وكان لحركته وإشارته موضع كبير في إجادة الأداء، فحركته معبرة تستلفت النظر وتنبّه الغافل وتعين على الحفظ والتذكر، فإذا أراد ذكر القلب مثلاً أشار إلى صدره، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "التقوى ههنا"⁽³⁰⁾. وإذا أراد الملازمة أشار بسبابته والتي تليها، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا" وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما⁽³¹⁾. اختار الرسول صلى الله عليه وسلم كل هذه الإشارات والحركات لتوضيح فكره وتكميل غرضه.

وقد يتبادر إشكال في أذهان بعض الناس أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد استخدم ألفاظاً غريبة وتراكيب جديدة، وهناك كتب ومعاجم ألّفت في غريب الحديث، ولكن عند التأمل والتعمّن يتضح أن الرسول صلى الله عليه وسلم استخدم هذه الألفاظ والتراكيب حسب مقتضى الحال لأنه صلى الله عليه وسلم كان يراعي مقتضى الحال إلى درجة الكمال. والغرابة التي ترى لأول وهلة هي إما لقلّة العلم وفقدان مصطلحات الجزيرة العربية أو أن هذه الألفاظ كانت مألوفة في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ثم غمضت فيما بعد، فهذه غرابة نسبية، لأنها ليست غريبة في ذاتها، أو أن غرابتها جاءت من عدم استخدامها، والرسول، عليه الصلوة والسلام، كان يستعملها لأنها كانت خير الألفاظ المؤدية للمعنى المراد. وهنا تكون الغرابة على ندرتها القليلة مما يحمدها لأنها فتحة جديدة للفظ جديد يأخذ طريقه كي يسير. ومثل هذه الكلمات والتراكيب نادرة إذا قيست بما تتداوله من أدب محمد صلى الله عليه وسلم.

29- صحيح مسلم، باب تخفيف الصلاة والخطبة، نشره محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، ط 1،

1375هـ/ 1955م، الجزء 4، ص 359.

30- البيهقي، شعب الإيمان، فصل فيما ورد من الأخبار، الجزء 14، ص 175.

31- صحيح البخاري، باب فضل من يعول يتيمًا، الجزء 6، ص 357، وانظر في رياض الصالحين، باب ملاطفة اليتيم،

ص 137.

2- رعاية أحوال المخاطب:

إنّ من الشروط الأساسية لبلاغة الكلام مراعاة مقتضى الحال، وهي تتمثل في رعاية مقتضى المقام والمخاطب. وكانت هذه ميزة من أهم ميزات بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يستخدم اللغة كما يشاء فقد امتلك ناصية اللغة امتلاكاً تاماً، وكان أفدر العرب وصفاً وبياناً وفصاحة وبلاغة، وكان يختار للتعبير أفضل الألفاظ والعبارات ويخاطب كل قبيلة بلسانها وأسلوبها ولهجتها ويحاورها بلغتها على اختلاف لغات العرب. فقد روي عن بريدة قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أفصح الناس، كان يتكلم بالكلام، لا يدرون ما هو، حتى يخبرهم"⁽³²⁾.

وروي عن علي رضي الله عنه قال: "ما سمعت كلمة غريبة من العرب إلا وقد سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعته يقول: "مات حتف أنفه" وما سمعتها من عربي قبله"⁽³³⁾. ويقول عطية السعدي رضي الله عنه: "قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأي قال: ما أغناك الله، فلا تسأل الناس فإن اليد العليا خير هي المنطية واليد السفلى هي المنطاة وإن مال الله مستول ومُنطى. قال: فكلمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغتنا"⁽³⁴⁾.

وروي في مسند عبد الرزاق والحميدي قوله صلى الله عليه وسلم لكعب بن عاصم الأشعري رضي الله عنه: "ليس من م يرم صيام في م سفر"⁽³⁵⁾. وهذه لغة صحيحة وأكثر ما تكلم بها الأشعريون وهي في الغالب يمنية، والأشعريون من اليمن. وإنما تكلم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم رغبة في البيان وحسن التعليم والإفهام لهم بلغتهم.

وهذه الظاهرة نراها واضحة كل الوضوح في الرسائل التي أرسلها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى القبائل النائية في الجزيرة ممن لا ينطقون بلغة قريش؛ فمثلاً لما أراد أن يكتب إلى قوم من العرب فخم اللفظ لما عرف من فضل قوتهم على فهمه وعادتهم لسباع مثله، كتب لوائل بن حجر الحضرمي: "من محمد

32- ابن الجوزي، الوفاء بأحوال المصطفى، ج 2، ص 406.

33- المرجع نفسه.

34- الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، ج 2، ص 130.

35- ينظر: الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، دار إحياء

التراث، القاهرة، ج 19، ص 172. ومحمد بن يوسف الصالحي، سبل الهدى والرشاد، ج 2، ص 140.

رسول الله إلى الأقبال العباهلة من أهل حضرموت بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، على التبعة⁽³⁶⁾ شاة واليتيمة⁽³⁷⁾ لصاحبها، وفي السيوب الخمس لا خلط ولا وراط⁽³⁸⁾، ولا شناق ولا شغار⁽³⁹⁾، ومن أجبى فقد أربى⁽⁴⁰⁾، وكل مسكر حرام⁽⁴¹⁾.

وكذلك كتابه صلى الله عليه وسلم لأكيدر صاحب دومة الجندل: "من محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب الإسلام وخلع الأنداد والأصنام مع خالد بن الوليد سيف الله: إن لنا الضاحية من الضحل⁽⁴²⁾ والبور والمعامي وأغفال الأرض⁽⁴³⁾ والحلقة والسلاح، ولكم الضامنة من النخل والمعين من المعمور لا تعدل سارحتكم⁽⁴⁴⁾ ولا تُعدُّ فاردتكم ولا يحظر عليكم النبات، تقيمون الصلوة لوقتها وتؤدون الزكاة، عليكم بذلك عهد الله وميثاقه"⁽⁴⁵⁾.

- 36- التبعة: الأربعون من الغنم، وقيل: اسم لأدنى ما تجب فيه الزكاة من الإبل والغنم وغيرهما. انظر: مجد الدين ابن الأثير، منال الطالب في شرح طوال الغرائب، تحقيق: محمود محمد الطناحي، مطبعة المدني، مصر، ص 71.
- 37- اليتيمة: الشاة الزائدة على التبعة حتى تبلغ الفريضة الأخرى. المرجع نفسه.
- 38- والمراد هنا هو أن يخلط رجل إبله بإبل غيره أو بقره أو غنمه ليمنع حق الله تعالى منها ويخس المصدق عليه فيما يجب له، والوراط الخديعة في الغنم وهو يجمع بين متفرقين أو يفرق بين مجتمعين. ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، مادة "خلط" و"ورط".
- 39- الشنق ما بين الفريضتين، وهو ما زاد من الإبل على الخمس إلى العشر، وما زاد على العشر إلى خمس عشرة، لا يؤخذ الشنق من الشنق حتى يتم، ومعنى قوله: "لا شناق" أي لا يُشْتَقُّ الرجل غنمه وإبله إلى غنم غيره لبيطل عن نفسه ما يجب عليه من الصدقة. والشغار: نكاح في الجاهلية، وهو أن يقول الرجل لآخر: زوجني ابتك أو أختك على أن أزوجك ابنتي أو أختي على أن صدق كل واحد منهما بضع الأخرى. كأنهما رفا المهر وأخليا البضع عنه. الجوهري، الصحاح في اللغة، ج 1، ص 36.
- 40- أي من عتق فقد أربى، والإجباء بيع الحرث والزرع قبل أن يبدو صلاحه، وقيل: هو أن يغيب إبله عن المصدق، من أجبأته إذا وارثته. ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، ج 2، ص 175.
- 41- انظر: الطبراني، المعجم الكبير، ج 15، ص 262، وابن الأثير، منال الطالب في شرح طوال الغرائب، ص 65.
- 42- الضاحية من النخل ما كان خارج السور، صفة غالبية لأنها تضحى للشمس، يعني الضامنة ما أطاف به سور المدينة، والضاحية الظاهرة البارزة من النخيل الخارجية من العمارة التي لا حائل دونها، والضحل: الماء القليل. انظر: مجد الدين ابن الأثير، منال الطالب في شرح طوال الغرائب، ص 35، وابن منظور، لسان العرب، ج 8، ص 31.
- 43- والبور الأرض التي لا تزرع والمعامي المجهولة ونحوها، ابن منظور، لسان العرب، ج 10، ص 96، والأغفال الأرض التي ليس فيها أثر يعرف وكذا المعامي أي الأراضي التي ليس بها أثر عمارة. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج 1، ص 36، ج 9، ص 410 وج 10، ص 96.
- 44- أي أن ماشيتهم لا تصرف عن مرعى تريده والسارحة هي الماشية التي تسرح بالغداة إلى مراعيها، والمراد من الفاردة الزائدة على الفريضة أي لا تضم إلى غيرها فتعدها وتحسب. ينظر: لسان العرب، ج 6، ص 232، وج 10، ص 214.
- 45- انظر: محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله الأنصاري، الطبقات الكبرى، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط 1، 1968م، ج 1، ص 288، وأبو هلال حسين بن عبد الله بن سهل العسكري، كتاب الصناعتين، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، مصر، ص 156.

ولما قال خطيب بني نهد طهفة بن أبي زهير النهدي: "أتيناك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم من غوري تهامة بأكوار⁽⁴⁶⁾ الميس ترمي بنا العيس⁽⁴⁷⁾ نستحلب الصبير⁽⁴⁸⁾ ونستحلب الخبير⁽⁴⁹⁾ ونستعضد البرير⁽⁵⁰⁾ ونستخيل الرهام⁽⁵¹⁾ ونستحيل أو نستجيل الجهام⁽⁵²⁾ في أرض غائلة النطا⁽⁵³⁾ غليظة المؤطأ قد نشف المدهن⁽⁵⁴⁾ وييس الجعثن⁽⁵⁵⁾ وسقط الأملوج⁽⁵⁶⁾ ومات العسلوج⁽⁵⁷⁾ وهلك

- 46- أكوار جمع كور وهو رخل الناقة بأداته، والميس هو شجر صلب تعمل منه أكوار الإبل ورحالها. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج 13، ص 233.
- 47- العيس: هي الإبل البيض مع شقرة يسيرة. ابن منظور، لسان العرب، ج 9، ص 497.
- 48- نستحلب الصبير: نستدر السحاب، الصبير هو السحاب الأبيض لا يكاد يمطر. ابن منظور، لسان العرب، ج 3، ص 278 و ج 7، ص 276.
- 49- أي تقطع النبات ونحصده ونأكله، من خلبت النبات أخلبه خلْباً واستخبلته إذا قطعته. ابن منظور، لسان العرب، ج 4، ص 165.
- 50- البرير: ثمر الأراك عامة، وقيل: هو أول ما يظهر من ثمر الأراك وهو حلو ومعناه نستعضد البرير ونجنه من شجره للأكل. ابن منظور، لسان العرب، ج 1، ص 373، ج 9، ص 254.
- 51- الرهام من الرهمة بالكسر وهي الأمطار الضعيفة، ونستخيل الرهام معناه إذا نظرت إليها فخلتها ماطرة. ابن منظور، لسان العرب، ج 4، ص 264 و ج 5، ص 346.
- 52- الجهام: السحاب الذي فرغ ماؤه، ومن روى نستخيل بالخاء المعجمة أراد نتخيل في السحاب خلاً أي المطر وإن كان جهاماً لشدة حاجتنا إليه، ومن رواه بالخاء أراد لا ننظر من السحاب في حال إلا إلى جهام من قلة المطر. ابن منظور، لسان العرب، ج 2، ص 403.
- 53- غائلة النطا: أي تغول، أي تهلك ساكنها ببعدها. ابن منظور، لسان العرب، ج 10، ص 148.
- 54- نشف المدهن: هو نقرة في الجبل يستنقع فيها الماء ويجمع فيها المطر، أي بسبب قلة المطر صارت المستنقعات خالية من الماء. ابن منظور، لسان العرب، ج 4، ص 433.
- 55- ييس الجعثن: الجعثن هو أصل النبات. ابن منظور، لسان العرب، ج 2، ص 293.
- 56- سقط الأملوج: الأملوج هو نوى المقل وقيل: الأملوج ورق من أوراق الشجر كالعيدان، ليس بعريض، كورق الطرفاء والسرو، والجمع الأماليج. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج 13، ص 168.
- 57- ومات العسلوج: والعسلوج ما لان واخضر من قضبان الشجر والكرم أول ما ينبت، والمعنى هنا ييس الغصن وذهبت طراوته. ابن منظور، لسان العرب، ج 9، ص 211. إذا قرأنا كلام طهفة نجد أنه قد عبر عن أحوال قومه خير تعبير ووضح أنه جاء من تهامة بعد تحمل المشقات الهائلة وهو وقومه اضطروا أن يأكلوا النبات من ثمر الأراك للجدب ولقلة الزاد، وقد جفت الأرض لعدم نزول المطر. واختار طهفة كنايات عديدة عن جفاف الماء وبيوسة الأشجار وقلة المرعى والألبان.

الهدبي ومات الودي... إلخ. فقال رسول الله: اللهم بارك لهم في محضها ومخضها ومدقيها وفريقها⁽⁵⁸⁾ وابعث راعيها في الدثر⁽⁵⁹⁾ وافجر لهم التمد⁽⁶⁰⁾ وبارك لهم في المال والولد، من أقام الصلوة كان مسلماً ومن أتى الزكوة كان محسناً، ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصاً لكم، يا بني نهد ودائع الشرك ووضائع الملك⁽⁶¹⁾ لا تلطط في الزكوة ولا تلجد⁽⁶²⁾ في الحياة ولا نتاقل عن الصلاة⁽⁶³⁾.

ولا يخفى على المتأمل أن مثل هذا الأسلوب أكثر تأثيراً على المخاطب، لأن الإنسان بطبيعته يحب لغته ولهجته، وكلما أجاب الأجنبي بلغته ولهجته يكون هذا أشد تأثيراً في تحريك المشاعر وإثارة العواطف.

3 - الأصالة والجدة:

من أبرز مميزات أسلوب الرسول صلى الله عليه وسلم الأصالة والإجادة التي كانت ظاهرة واضحة في أقواله الكثيرة التي كان يبدعها عليه أفضل الصلاة والسلام على غير مثال سابق، وهو يتدع كثيراً من الأساليب البيانية والعبارات الجديدة، التي تكشف إلهام الله له وتوفيقه له للإتيان بألوان متنوعة من فنون القول التي لم يسبق إليها وقد قال صلى الله عليه وسلم: "أوتيت القرآن ومثله معه"⁽⁶⁴⁾ وقد

58 - المحض: أي خالص اللبن، والمخض: ما مخض من اللبن، وهو الذي حرّك في السقاء حتى يتميز زبده فيؤخذ منه. ومدقيها: هو اللبن الممزوج بالماء، والضائر لأرضهم أو أنعامهم المذكورة في كلام طهفة، فدعاء النبي صلى الله عليه وسلم لهم في ألبانهم بأقسامها، والقصد الدعاء لهم بخصب أرضهم وسقيها، فكأنه قال: اللهم اسق بلادهم واجعلها خصبة ملبنة. ينظر: أحمد بن زيني دحلان، السيرة النبوية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 1، 1416هـ/ 1995م، ج 2، ص 213.

59 - الدثر: المال الكثير أو الخصب والنبات الكثير لأنه من الدثار، وهو الغطاء لأنها تغطي وجه الأرض. المرجع نفسه، ص 213.

60 - التمد: الماء القليل أي صيره كثيراً.

61 - ودائع الشرك: قيل المراد بها العهود والمواثيق التي كانت بينهم وبين من جاورهم من الكفار. وضائع الملك: هي الوظائف التي تكون على الملك، وهو ما يلزم الناس في أمواهم من الزكاة والصدقة، أي لكم الوظائف التي تلزم المسلمين لا تتجاوز عنكم ولا تزيد عليكم فيها شيئاً، بل أنتم كسائر المسلمين.

62 - لا نلطط: أي لا نمنع الزكاة، يقال لط الغريم إذا منعه حقه، ولا نلجد: أي لا نمل عن الحق. المرجع نفسه، ج 2، ص 213.

63 - ابن الأثير، منال الطالب في شرح طوال الغرائب، ص 8.

64 - انظر: علي المتقي علاء الدين بن حسام الدين الهندي البرهانفوري، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 5، 1985م، ج 1، ص 174، وابن الربيع الزبيدي، تيسير الوصول، ج 1، ص 25.

لاحظ الدارسون هذه الخصوصية في بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم وبيانه (65). وقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه إلى هذه الميزة قائلاً: "أعطيت جوامع الكلم" وفي رواية "أوتيت جوامع الكلم" (66).

وعن هذا الجانب يقول الرافعي: "فلا جرم كان صلى الله عليه وسلم على حد الكفاية في قدرته على الوضع والتشقيق من الألفاظ، وانتزاع المذاهب البيانية، حتى اقتضت ألفاظ كثيرة لم تسمع من العرب قبله، ولم توجد في متقدم كلامها، وهي تعدّ من حسنات البيان، لم يتفق لأحد مثلها في حسن بلاغتها وقوة دلالتها وغرابة التريخ اللغوية في تأليفها وتنسيقها، كلها قد صار مثلاً، وأصبح ميراثاً خالداً في البيان العربي" (67).

وهناك أمثلة كثيرة على هذا، منها: قوله صلى الله عليه وسلم: "مات حتف أنفه" وقوله: "الآن همي الوطيس" (68) وقوله: "لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين" وقوله عليه السلام: "هدنة على دخن" (69). إذا تأملنا في كل هذه التعبيرات وجدنا بحراً زاخراً من المعاني الكامنة والأسرار اللطيفة، وقد وقف الرافعي تحت قوله عليه السلام: "هدنة على دخن" طويلاً وقال: "الهدنة: الصلح والمواذعة، والدخن: تغيير الطعام إذا أصابه الدخان في حال طبخه فأفسد طعمه. وهذه العبارة لا يعدلها كلام في

65- انظر: أحمد حسن الزيات، دفاع عن البلاغة، عالم الكتب، القاهرة، ط 2، 1967م، ص 65-100 ووحى الرسالة، ج 3، ص 107، وعبد الحميد محمد المسلول، الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام، الجامعة الليبية، ط 1، 1973م، ص 387، ومحمد الصباغ، الحديث النبوي: مصطلحه، بلاغته، علومه، كتبه، منشورات المكتب الإسلامي، بيروت، 1392هـ/1972م، ص 93.

66- سنن أبي داود، باب ذكر الفتن ودلائلها، ج 1، ص 318، ومسند أحمد، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، 1374هـ/1955م، ج 4، ص 194. وأبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص 167، والرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 34.

67- الرافعي، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 9، 1393هـ/1973م، ص 243-277.

68- صحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب في غزوة حنين رقم (76) ورواه أحمد في المسند، ج 1، ص 207، والسيوطي، المزهري، ج 1، ص 39.

69- صحيح البخاري، باب المفاتيح في اليد، ج 21، ص 279، وصحيح مسلم، ج 23، ص 112، وانظر مزيداً من الأمثلة في: الشريف الرضي، المجازات النبوية، تحقيق وشرح: طه محمد الزيني، مؤسسة الحلبي وشركاء، القاهرة، 1387هـ/1967م، الزيات، وحى الرسالة، ج 3، ص 107، وعز الدين علي السيد، الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، ص 185-186، وكبرى شيخ أمين، أدب الحديث النبوي، دار الشروق، بيروت، ط 2، 1395هـ/1975م، ص 104-106.

معناها، فإن فيها لوناً من التصوير البياني لو أذيت له اللغة كلها ما وفت به، وذلك أن الصلح إنما يكون موادعة وليناً، وانصراًفاً عن الحرب، وكفّاً عن الأذى، وهذه كلها من عواطف القلوب الرحيمة، فإذا بني الصلح على فساد، وكان لعله من العلل، غلب ذلك على القلوب فأفسدها، كما يغلب الدخن على الطعام، فلا يجد أكله إلا رائحة هذا الدخان، والطعام من بعد ذلك مشوب مفسد. فهذا في تصوير معنى الفساد الذي تنطوي عليه القلوب الممتلئة غيظاً وحقداً. وثم لون آخر في صفة هذا المعنى، وهو اللون المظلم الذي تنصّب به النية (السوداء) وقد أظهرته في تصوير الكلام لفظة "الدخن".

ثم معنى ثالث، وهو النكتة التي من أجلها اختيرت هذه اللفظة بعينها، وكانت سر البيان في العبارة كلها، وبها فضلت كل عبارة تكون في هذا المعنى وذلك أن الصلح لا يكون إلا أن تطفأ الحرب. فهذه حرب قد طفئت نارها بما سوف يكون فيها ناراً أخرى. كما يُلقى الحطب الرطب على النار تحبو به قليلاً، ثم يستوقد فيستعر فإذا هي نار تلتطى وما كان فوقه الدخان فإن النار ولا جرم من تحته، وهذا كله تصوير لدقائق المعنى كما ترى، حتى ليس في الهدنة التي تلك صفتها معنى من المعاني يمكن أن يتصور في العقل إلا وجدت اللون البياني يصوره في تلك اللفظة (الدخن)"(70).

اتضح من هذا أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يستعمل عبارات وتراكيب ومصطلحات لم تسمع من العرب قبله، يقول الخطابي في هذا الصدّد: "ومن فصاحته وحسن بيانه أنه قد تكلم بالفاظ اقتضبها ولم تسمع من العرب قبله ولم توجد في متقدم كلامها ... وقد يدخل في هذا النوع إحداثه الأسماء الشرعية"(71)، وكذلك صرح الجاحظ أيضاً(72).

4- الإيجاز:

من أبرز صفات كلام الرسول صلى الله عليه وسلم ومن أخص خصائص بيانه الشريف الإيجاز، لأنه صلى الله عليه وسلم أوجز الناس كلاماً، كان يتكلم بالكلام القليل يجمع فيه المعاني الكثيرة. والمراد من الإيجاز إيضاح المعنى بأقل ما يمكن من اللفظ. روى الترمذي في الشمائل عن الحسن بن علي قال: "سألت خالي هند ابن أبي هالة وكان وصالاً، قلت: صف لي منطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ... طويل السكت لا يتكلم في غير حاجة يفتح الكلام ويختمه

70- ينظر: الرفاعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 329.

71- الإمام أبو سليمان أحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي، غريب الحديث، ج 1، ص 66.

72- ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج 2، ص 16.

باسم الله ويتكلم بجوامع الكلم، كلامه فصل لا فضول ولا تقصير، ليس بالجافي ولا المهين⁽⁷³⁾. وقد مرّ حديث أبي هريرة رضي الله عنه: "بعثت بجوامع الكلم"، ويقول الإمام البخاري في تفسير جوامع الكلم: أن الله يجمع له الأمور الكثيرة التي كانت تكتب في الكتب قبله.

وكان عليه الصلاة والسلام يكره الثثرة وفضول الكلام ومن ذلك قوله: "إن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة أساؤكم أخلاقاً، والثراثرون المتشدقون المتفيهقون"⁽⁷⁴⁾ وقوله: "إن الله عز وجل يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه تخلل البقرة بلسانها"⁽⁷⁵⁾. ويذكر أن أعرابياً تحدث عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكثر الكلام فقال عليه الصلاة والسلام: "كم دون لسانك من حجاب؟ فقال: شفتاي وأسناني، فقال له: إن الله يكره الانبعاق في الكلام، فنصّر وجه امرئ أوجز في كلامه واقتصر على حاجته"⁽⁷⁶⁾. والانبعاق هو الاندفاع في الكلام بشدة والإكثار منه.

وكان يوصي بالإيجاز في الكلام ويرغب فيه، ومن ذلك قوله لجرير بن عبد الله البجلي: "يا جرير إذا قلت فأوجز، وإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف"⁽⁷⁷⁾. ومن هنا فقد غلب على كلامه صلى الله عليه وسلم الإيجاز؛ وإذا كان الإيجاز أصلاً في بلاغات اللغات فإنه في البلاغة العربية أصل وروح وطبع⁽⁷⁸⁾. وقد وصف البلاغيون والنقاد القدماء الحديث النبوي بالإيجاز من أمثال أبي هلال العسكري⁽⁷⁹⁾ وابن رشيقي القيرواني⁽⁸⁰⁾ وابن الأثير⁽⁸¹⁾ والعز بن عبد السلام⁽⁸²⁾، وكذلك احتفل

-
- 73- أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، شمائل الترمذي، ص 16.
- 74- مسند أحمد، ج 4، ص 194.
- 75- سنن أبي داود، طبع ونشر مصطفى الحلبي، مصر، ط 1، 1371هـ/1952م، ج 2، ص 597.
- 76- انظر: الزمخشري، الفائق في غريب الحديث والأثر، باب الباء مع العين، ج 1، ص 38 وابن رشيقي القيرواني، العمدة في صناعة الشعر ونقده، القاهرة، 1344هـ/1925م، ج 1، ص 161.
- 77- المبرد، محمد بن يزيد، الكامل، تحقيق: محمد أحمد الوالي، ج 1، ص 10.
- 78- انظر: حسن الزيات، دفاع عن البلاغة، ص 130.
- 79- انظر: أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص 187.
- 80- انظر: ابن رشيقي القيرواني، العمدة، ج 1، ص 224.
- 81- انظر: ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تقديم وتحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، منشورات دار الرفاعي، الرياض، ط 2، 1403هـ/1983م، ج 1، ص 119.
- 82- انظر: العز بن عبد السلام، الإشارة إلى الإيجاز، الأهرام التجارية، 1970م، ص 2.

المحدثون⁽⁸³⁾ بموضوع الإيجاز في البيان النبوي من مثل ابن رجب الحنبلي⁽⁸⁴⁾ وسواهم وكذلك شرّاح الحديث.

ولهذه الخصيصة والميزة النبوية برزت ظاهرة جوامع الكلم في كلام الرسول صلى الله عليه وسلم وهي توجد في كلامه بوفرة وكثرة جداً. ومن الجمل والأقوال القصيرة التي تضمنت المعاني الكثيرة قوله: "ليدخلنّ هذا الدين على ما دخل عليه الليل"⁽⁸⁵⁾ وقوله: "إذا لم تستح فاصنع ما شئت"⁽⁸⁶⁾ وقوله: "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى"⁽⁸⁷⁾ وقوله: "اليد العليا خير من اليد السفلى"⁽⁸⁸⁾ وقوله: "اللهم إني أحمّدك على العرق الساكن والليل النائم"⁽⁸⁹⁾ وقوله: "خير المال عين ساهرة لعين نائمة"⁽⁹⁰⁾. وقد توقف ابن الأثير في المثل السائر عند جوامع الكلم للنبي صلى الله عليه وسلم وأورد قوله صلى الله عليه وسلم: "أوتيت جوامع الكلم" وقال: المراد بذلك أنه صلى الله عليه وسلم أوتي الجوامع للمعاني. وقد جعل جوامع الكلم على قسمين:

القسم الأول: ألفاظ "تتضمن من المعنى ما لا تتضمنه أخواتها، مما يجوز أن يستعمل في مكانها. فمن ذلك ما يأتي على حكم المجاز، ومنه ما يأتي على حكم الحقيقة"⁽⁹¹⁾، ومثّل للأول بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "الآن همي الوطيس"⁽⁹²⁾ وقوله: "بعثت في نفس الساعة"⁽⁹³⁾ ومثّل لما يأتي على حكم الحقيقة بأبيات لابن الرومي⁽⁹⁴⁾.

-
- 83- انظر: عز الدين السيد، الحديث النبوي، ص 427.
- 84- انظر: ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، القاهرة، 1213هـ، ص 2.
- 85- الشريف الرضي، المجازات النبوية، تحقيق: طه محمد الزيني، ص 419.
- 86- صحيح البخاري، باب حديث الغار، ج 11، ص 302، وسنن أبي داود، باب في الحياء، ج 12، ص 418، وابن حجر العسقلاني، فتح الباري، المطبعة السلفية، القاهرة، 1380هـ، ومؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، القاهرة، 1387هـ/ 1967م، ج 10، ص 523.
- 87- صحيح البخاري، باب بدء الوحي، ج 1، ص 3، وسنن أبي داود، باب فيما عني به الطلاق والنيات، ج 6، ص 118.
- 88- صحيح البخاري، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى، ج 5، ص 248.
- 89- الشريف الرضي، المجازات النبوية، ص 77.
- 90- المصدر السابق: 93.
- 91- ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج 1، ص 117.
- 92- رواه مسند أحمد، ج 4، ص 207.
- 93- سنن الترمذي، باب ما جاء في رفع الأمانة، رقم: 2213.
- 94- انظر التفصيل في: ابن الأثير، المثل السائر، ج 1، ص 119.

وأما القسم الثاني من جوامع الكلم فالمراد به "الإيجاز الذي يدل به بالألفاظ القليلة على المعاني الكثيرة، أي أن ألفاظه صلوات الله عليه جامعة للمعاني المقصودة على إيجازها واختصارها. وجّل كلامه جار هذا المجرى فلا يحتاج إلى ضرب الأمثلة"⁽⁹⁵⁾.

وقد بيّن الأستاذ أحمد حسن الزيات سبب شيوع الإيجاز في أسلوب النبي صلى الله عليه وسلم قائلاً: "لأن الإيجاز قوة في التعبير وامتلاء في اللفظ وشدة في التماسك، وهذه صفات تلازم قوة العقل وقوة الروح وقوة الشعور وقوة الذهن، وهذه القوى كلها على أكمل ما تكون في الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن هنا شاعت جوامع الكلم في خطبه وأحاديثه حتى عدّت من خصائصه"⁽⁹⁶⁾.

5 - المنطقية والتسلسل:

من أبرز مظاهر قوة الكلام النبوي وتأثيره في متلقيه قيامه على أساس من المنطقية والتسلسل الفني البياني النابع أساساً من منطقية الفكر التي تعتبر سمة للفكر الإسلامي وموضوعيته، وكان لا بد أن ينعكس ذلك بطبيعة الحال على فكر النبي وبيانه الشريف.

ولا يخفى على المتأمل أن المنطقية والتسلسل ضرورة ملحة للداعي لإقناع المخاطبين. ولذا نجد أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه يهتم بهذا الجانب اهتماماً بالغاً كما جاء في الحديث "أن فتى من قريش أتى النبي فقال: يا رسول الله! ائذن لي في الزنا، فأقبل القوم فزجروه، فقالوا: مه مه، فقال عليه السلام: ادنه، فدنا منه قريباً، فقال: أتحبه لأملك؟ قال: لا، والله جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: أفتحبه لابنتك؟ قال: لا، والله يا رسول الله جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبون لبناتهم، ثم ذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أخته وعمته وخالته، وفي ذلك يقول الفتى مقالته: لا، والله يا رسول الله جعلني الله فداك. قال: فوضع يده عليه وقال: اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه"⁽⁹⁷⁾.

ومن الأمثلة على استخدام المنطق الوجداني في كلام الرسول صلى الله عليه وسلم ما ورد عن النّوّاس بن سمعان رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البرّ والإثم، قال: "البرّ حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس"⁽⁹⁸⁾.

95- المصدر السابق، ج 1، ص 119.

96- أحمد حسن الزيات، وحي الرسالة، ج 107، ص 3.

97- علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، دار الكتب العربية، بيروت، 1402هـ / 1982م، ص 129.

98- صحيح مسلم، باب البرّ والإثم، ج 12، ص 403، والزبيدي، تيسر الوصول، ج 2، ص 24.

ومثل ذلك ما ورد عن وابضة بن معبد رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله، فقال: جئت تسأل عن البر؟ قلت: نعم، قال: استفت قلبك، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس (99).

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يراعي التسلسل المنطقي للفكرة، وترتيب المعاني بعضها على بعض، والانتقال من المقدمة إلى النتيجة، والعنصر المترتب على عنصر سابق، والجزئية في الموضوع تسلم إلى جزئية أخرى في تتابع وتدرج منطقي مقنع، وفي أسلوب يتلقاه السامع بالرضا والقبول، إن التأمل في الكلام النبوي يجد تلاؤم أجزاء الموضوع والانسجام التام بين مكونات النص البياني، والتساوق المحكم بين مفردات النص ومحتواه.

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن الصدق يهدي إلى البرّ وإن البرّ يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً. وإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً" (100). ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث آخر: "إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ" (101).

والأمثلة كثيرة على استخدام الرسول صلى الله عليه وسلم مثل هذه الأساليب ليؤثر على ذهن المتلقي. ومن المعلوم أن التدرج من المقدمة إلى النتيجة يؤدي إلى استجابة المخاطب لإيحاءات النص، وتسرب تلك الإيحاءات إلى عقله وقلبه واستقرارها في نفسه.

6- الدقة والإحكام:

من المزايا الهامة للأسلوب النبوي الدقة والإحكام في استخدام الألفاظ والتراكيب الدالة على المراد، وهي تختار بعناية تامة، بحيث لا يغني عنها غيرها، وبحيث تكون في المحل المناسب دون زيادة ونقصان.

والرسول عليه الصلاة والسلام يحرص على استخدام الألفاظ ذات الحيوية والطاقة الفاعلة ويوظفها بالشكل المناسب لتحقيق المعنى المطلوب والتأثير المرغوب في المستمع فمثلاً قوله صلى الله عليه

99- مسند أحمد، من مسانيد وابضة بن معبد الأسدي، ج 36، ص 443.

100- النووي، رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، ص 28، 29.

101- الزبيدي، تيسير الوصول ج 2، ص 215.

وسلم عن المتكبر: "بينما رجل يمشي قد أعجبتته جمته وبرداه، إذ خُسِفَ به الأرض فهو يتَجَلَّجَلُ في الأرض حتى تقوم الساعة"⁽¹⁰²⁾.

فلفظنا "خسف" و"يتجلجل" بما تحملانها من قوة وما تشفان عنه من معنى رهيب يزيد في تعميقه في نفوسنا دلالة الفعل الماضي على عملية الخسف التي تشعر بتحقيقه فعلا، ودلالة الفعل المضارع التجلجل في أعماق الأرض واستمراره في صورة تستحضرها في نفوسنا هنا صيغة المضارع⁽¹⁰³⁾.

ومن مظاهر الدقة والإحكام أن التراكيب المستخدمة من الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى جانب دلالتها على المعنى المقصود محافظة على سموها وعفتها ونظافتها فلا تتحدش الحياء ولا تؤدي إلى استثارة كوامن الغزيرة أو حفز الشهوة، كقوله عليه الصلاة والسلام لأسامة بن زيد - وقد كساه قبطية فكساها زيد امرأته - "أخاف أن تصف حجم عظامها"⁽¹⁰⁴⁾ فاختار الرسول كلمة "عظام" بدلاً من كلمة "أعضاء" لأن لفظة الأعضاء تحت الثوب الرقيق الأبيض تنبه إلى صور ذهنية كثيرة غير مناسبة فتنزه الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك، وضرب الحجاب اللغوي عن هذه المعاني السافرة⁽¹⁰⁵⁾.

ومن أمثلة الدقة المحكمة في استعمال الكلمات والتراكيب العفيفة السامية عند عرض موقف الفاحشة، وتفضيلها على العبارات الصريحة المباشرة ما نجده في حديث الكفل "... على أن يطأها فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته"⁽¹⁰⁶⁾ ومثل ذلك في حديث الرجل والمرأة فقد جاء على لسان الرجل وهو يراود المرأة "لا والله ما هو دون نفسك" قوله وهو يصف حاله معها "فلما تكشفتها" وفي قول المرأة نفسها "اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه"⁽¹⁰⁷⁾.

ولا يخفى على المتأمل أن الحديث النبوي هنا اختار الألفاظ المناسبة في التعبير عن مثل هذه اللحظات الضعيفة الهابطة دون أن ينزل إلى مستوى اللحظة الهابطة. وهذا قمة الفن المعبر عن المعنى المقصود في أسلوب من الأدب الهادف البناء. وهذا عكس ما نجده في الآداب الهابطة والأساليب التي تسلط الأضواء الكاملة على اللحظات الدنيئة الهابطة وتبالغ فيها لإشعال الغرائز وإثارة الفواحش.

102 - صحيح مسلم، ج 14، ص 64.

103 - الشريف الرضي، المجازات النبوية، ص 166.

104 - مسند أحمد، من مسانيد أسامة بن زيد، ج 44، ص 257.

105 - مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، ج 3، ص 22-22.

106 - سنن الترمذي ج 4، ص 657-658.

107 - صحيح البخاري، ج 3، ص 104-105.

يشكل التصوير البياني ظاهرة واضحة في الحديث النبوي، ويمثل ملمحاً مهماً في بيان الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا مظهر طبيعي لبلاغة النبي صلى الله عليه وسلم واقتفائه لآثار القرآن الكريم واستمداد طريقتة في البيان والتصوير.

والصور البيانية ذات وظيفة حيوية في تمثيل الأشياء والأفكار والمعاني المجردة وتجسيدها في عقل السامع أو القارئ وقلبه من خلال تمكنه من تمثل تلك الصور والمشاهد بسبب الخيال ونشاطه الحيوي الذي ينبعث من الصور المرئية وتفاعلها مع عقل المتلقي ووجدانه بسبب اللغة التي تمثل الوسيط المشترك بين الأديب والمتلقي. وقد شاع في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أساليب متعددة للتصوير، وعناصر متنوعة تشكل مقومات التصوير في بيانه الشريف⁽¹⁰⁸⁾، ومن هذه العناصر المجاز، والمجاز ينقسم إلى أنواع متعددة، منها: الاستعارة والكناية والمجاز المرسل وغيرها.

المجاز أسلوب استخدمه العرب في التعبير عن أفكارهم ومشاعرهم، وهو أن نقول شيئاً ونعني شيئاً آخر، أو أن نستعمل اللفظ في غير ما وضع له بسبب وجود علاقة مع قرينة تمنع من إرادة المعنى الذي وضع له اللفظ أصلاً، فإن كانت العلاقة المشابهة فهو المجاز المسمى بالاستعارة وإن كانت غير المشابهة فهو المجاز المسمى عند البلاغيين بالمجاز المرسل. ولا شك في أن للمجاز أهميته الواضحة في تقوية الفكرة وتعميق أثرها⁽¹⁰⁹⁾ من خلال ما يتضمنه هذا الأسلوب من تصوير للمعنى.

ومن أوضح وجوه الفن البياني في الحديث النبوي الاستخدام الكثير لأساليب المجاز، واستثمارها في مهمة الإبلاغ والبيان وإيضاح المعاني الإسلامية وأفكارها ونقلها إلى عقول المتلقين وقلوبهم. وظهور هذا الأسلوب في بيانه عليه السلام من آثار فصاحته وبلاغته المتمكنة من نفسه، والتي تهيأت لها أسبابها الكثيرة، وأثر لقصد الرسول لتوظيف إمكانات هذا الأسلوب في تحقيق الدعوة وحمل الرسالة إلى الناس من خلال الكلمة المؤثرة الفاعلة.

وقد لفت هذا الأسلوب الظاهر في الحديث النبوي نظر الشريف الرضي ودفعه لأن يخصه

108- ينبغي أن نشير إلى أن مفهوم الصورة الجديدة يتسع ليتجاوز المفهوم البلاغي للصورة الذي يقف فقط عند الاستعارة والتشبيه، ويشمل الصورة الذهنية والنمطية ويشمل الصورة بشكل عام؛ من حيث هي تشكيل لغوي يشكل المجاز جزءاً منه.

109- انظر درو، أليزابيت، الشعر كيف نفهمه وتذوقه، ترجمة: محمد إبراهيم الشوش، منشورات مكتبة ميمنة بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر، بيروت، نيويورك، 1961م، ص 59-60.

بكتاب مستقل أخلصه جميعه لبحث المجازات النبوية ودراستها. وقال عن هذا الكتاب في مقدمته: "كتاب يشتمل على مجازات الآثار الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله؛ إذ كان فيها كثير من الاستعارات البديعة، ولمع البيان الغريبة، وأسرار اللغة اللطيفة، يعظم النفع باستنباط معادنها، واستخراج كوامنها، وإطلاعها من أكمتها وأكنانها، وتجريدها خلكها وأجفانها... وعملت بتوفيق الله على تتبع ما في كلامه صلى الله عليه وسلم من ذلك، والإشارة منه إلى مواضع النكت ومواقع الغرض بالاعتبارات الوجيزة والإيحاءات الخفيفة"⁽¹¹⁰⁾. وقد جمع في هذا الكتاب ثلاثمائة وواحد وستين نصاً نبوياً.

من أهم أنواع المجاز الاستعارة، وقد تكلم البلاغيون عن أنواعها وبلاغتها في مؤلفاتهم بالتفصيل، وفيما يلي نحاول تسليط الأضواء على بعض صور الاستعارة وبلاغتها في الحديث النبوي.

1- الاستعارة:

ومن أوضح أنواع المجاز في الحديث النبوي الاستعارة، وهي استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الوضعي، كمثّل قول الرسول صلى الله عليه وسلم عن جبل أحد: "هذا جبل يحبنا ونحبه"⁽¹¹¹⁾.

وقد ساق الدكتور عز الدين علي السيد هذا الحديث مثلاً على ما في الاستعارة من قدرة حيوية على نقل القيم النفسية، حيث "شبه فيها الجبل بالمحب بدلالة إثبات الفعل له وإسناده إليه. وهذا الإسناد هو الذي يسبح بالخيال تلك المسابح، ويذهب به يستبطن ما وراء العبارة لأنه بلفظ موح، بعيد الغور"⁽¹¹²⁾.

ومن أمثلة الاستعارة في الحديث التي ساقها الشريف الرضي قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "وستجدون آخرين للشيطان في رؤوسهم مفاحص فاقلعوها بالسيوف"⁽¹¹³⁾ ويعلق عليها بقوله: "وهذه من الاستعارات العجيبة والمجازات اللطيفة، وذلك أن من كلام العرب أن يقول القائل منهم إذا أراد أن يصف إنساناً بشدة الارتكاس في غيه والارتكاض في عنان بغيه: قد فرخ الشيطان في رأسه أو قد عشش في قلبه. فذهب عليه الصلاة والسلام إلى ذلك الوضع وبنى على ذلك الأصل، فقال: "للشيطان في

110- الشريف الرضي، المجازات النبوية، ص 9-10.

111- صحيح البخاري، باب فضل الخدمة في الغزو، ج 10، ص 14، والزبيدي، تيسير الوصول ج 3، ص 280.

112- عز الدين علي السيد، الحديث النبوي، ص 167.

113- أبو بكر أحمد بن حسين بن علي البيهقي، السنن الكبرى، نشر السنة، ملتان، ج 9، ص 91، والشريف الرضي،

المجازات النبوية، ص 55.

رؤوسهم مفاحص" والمفحص في الأصل الموضع الذي تبخته القطة لتجثم عليه أو لتبيض فيه. وإنما قيل له مفحص لأنها لا تجثم فيه إلا بعد أن تفحص التراب عنه توطئة لمجثمها وتمهيداً لجسمها. ويقال: ما بقي لفلان مفحص قطة، إذا لم يبق له ربع يزويه ولا جريء⁽¹¹⁴⁾ يكون فيه. فيحتمل قوله عليه الصلاة والسلام: "للشيطان في رؤوسهم مفاحص" أحد معنيين: أحدهما أن يكون أراد أن الشيطان قد بدأ يخذلهم ويغريهم ويستهوئهم ويضلهم، ولم يبلغ من ذلك غايته ولا استوعب خديعته كالقطة التي بدأت باتخاذ المفحص لتبيض فيه، وترتيب فراخها فيه⁽¹¹⁵⁾.

والمعنى الآخر: أن يكون أراد أن الشيطان قد استوطن رؤوسهم⁽¹¹⁶⁾، فجعلها له مقبلاً ومبركاً وملعباً وتممكاً⁽¹¹⁷⁾ كما تتخذ القطة لتأوي إليه وتستجن فيه⁽¹¹⁸⁾. والمعنى الثاني هو المقصود وهو الأولى⁽¹¹⁹⁾.

وقال ابن الأثير: "ومما ورد من الاستعارة في الأخبار النبوية قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تستضيئوا بنار المشركين" فاستعار النار للرأي والمشورة: أي لا تهتدوا برأي المشركين، ولا تأخذوا بمشورتهم"⁽¹²⁰⁾.

ومن الاستعارات أيضاً في بيان الرسول صلى الله عليه وسلم قوله: "إذا طلع حاجب الشمس فلا تصلوا..."⁽¹²¹⁾، وقوله لمعاذ بن جبل: "ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟"⁽¹²²⁾ قال: بلى يا رسول الله، فقال: رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد"⁽¹²³⁾.

-
- 114 - الجريء: بيت يصطاد الصيادون فيه السباع.
- 115 - انظر: عز الدين علي السيد: الحديث النبوي، ص 217-229.
- 116 - الشريف الرضي، المجازات النبوية، ص 166.
- 117 - التمتع: المكان الذي يتمرغ فيه الحيوان.
- 118 - المصدر السابق، ص 55-56.
- 119 - انظر: الشريف الرضي، المجازات النبوية، ص 56 (تعليق المحقق في الهامش) وجاء فيه: "وفي الحديث استعارة تصريحية، حيث شبه المعلومات الزائفة والعقائد الفاسدة التي بثها الشيطان في عقولهم بعش الطائر المعد لإقامته فيه".
- 120 - سنن النسائي، ج 15، ص 464، وابن الأثير، المثل السائر، ج 2، ص 103، وانظر أيضاً: ج 1، ص 117.
- 121 - صحيح ابن حبان، كتاب الصلاة، ج 4، ص 386. والشريف الرضي، المجازات النبوية، ص 374.
- 122 - المصدر السابق، ص 421.
- 123 - سنن ابن ماجه، عيسى الحلبي وشركاه، 1972م، ج 2، ص 1407.

2- التشبيه:

للتشبيه أهمية كبيرة في تمثيل المعاني وتوضيحها، وهذا الأسلوب يحتل في أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم حيزاً كبيراً، مما يعني أن أدب الحديث النبوي قد أضاف إلى اللغة الأدبية في البيان العربي صوراً جميلة وتشبيهات رائعة أبدعها الرسول صلى الله عليه وسلم خلال حياته التي أمضاها محدثاً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً بأفعاله الحسنة وأقواله البليغة.

ومن أمثلة التشبيه النبوي قوله عليه الصلاة والسلام في معرض تحذيره من رذيلة الحسد: "ياكم والحسد فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب" (124).

ومن ألوان التشبيه في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم التشبيه المركب الذي تشبه فيه الأحوال والهيئات بما هي له شبيه ليتقرر أمر الأولى بقياسها على الأخرى (125). وهذا اللون كثير جداً في الحديث النبوي، ومن أمثلة ذلك "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها..."، فقد اختار النبي عليه السلام تشبيهاً عجباً موفقاً رسم من خلاله صورة رائعة في حيويتها وتعبيرها الفائق وتجسيدها للعلاقة بين الفرد والمجتمع. وخاصة في مجال تأثر المجتمع بسلوك أفرادها، وتبين هذه الصورة أن حرية الفرد يجب أن يكون لها حد تنتهي عنده: "مثل القائم على حدود الله والمدهن فيها كمثل قوم استهموا على سفينة في البحر فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها يصعدون ويستقون الماء فيصبون على الذين في أعلاها، فقال الذين في أعلاها: لا ندعكم تصعدون فتؤذوننا، فقال الذين في أسفلها: فإننا نثقها من أسفلها فنستقي، فإن أخذوا على أيديهم فمنعوهم نجوا جميعاً، وإن تركوهم غرقوا جميعاً" (126).

وفي موضوع المرأة وكونها تختلف عن الرجل، وأنه لن يستطيع أن يغير من طبيعتها يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "المرأة كالضلع إن أقمته كسرتها، وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج" (127). يجسد الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم المعنى السابق بهذه الصورة الملموسة: إن الضلع أعوج... ولن يستقيم... إن اقتنع الرجل بها على ما هي عليه سعد واستمتع وعاش عيش الهناء والسرور، وإن عزم تغييرها عن طبيعتها استحالت الحياة الزوجية وآل الأمر إلى الفراق والطلاق.

124- الدارمي، سنن الدارمي، شركة الطباعة الفنية المتحدة بالدراسة، ص 31-32.

125- عز الدين علي السيد: الحديث النبوي، ص 177.

126- سنن الترمذي، ج 4، ص 470.

127- صحيح البخاري، باب النكاح، ج 4، ص 106.

من أساليب التصوير في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم أسلوب التصوير بالكناية، وهو أسلوب عربي سلكه العرب في بيانهم واستخدمه القرآن الكريم، وعرفه دارسو البلاغة بأنه اللفظ الذي أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه الأصلي⁽¹²⁸⁾. وهو أسلوب طريف جميل، لما فيه من التصوير للمعنى والإقناع به، من خلال الانتقال من الملزوم إلى اللازم، إضافة إلى ما فيه من فضيلة الإيجاز أيضاً.

ومن الكنايات النبوية الجميلة المهذبة قوله عليه السلام: "من كشف قناع امرأة وجب لها المهمل"⁽¹²⁹⁾ وقوله: "من يضمن لي ما بين لحييه وبين رجله أضمن له الجنة"⁽¹³⁰⁾ وقوله: "ورجل قلبه معلق في المساجد... ورجل دعتة امرأة ذات حسب وجمال فقال: إني أخاف الله"⁽¹³¹⁾ وقوله: "خياركم أليكنم مناكب في الصلاة"⁽¹³²⁾، من مثل قوله: "الخيال معمود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة"⁽¹³³⁾، وفيه كناية عن نسبة الخير للخيل، وقوله: "أكثرنا من ذكر هادم اللذات"⁽¹³⁴⁾، وفيه كناية عن موصوف هو الموت، وقوله صلى الله عليه وسلم يوم حنين: "الآن همي الوطيس"⁽¹³⁵⁾ والوطيس هو التنور الذي توقد فيه النار وتستعر، ولا شك في أن التعبير "همي الوطيس" أجمل وأكثر تصويراً لاحتمال الحرب من قولنا: استمرت الحرب⁽¹³⁶⁾، واشتدت أو نحو ذلك، وفيه كناية عن شدة الحرب واحتدامها، وقوله: "ليدخلن هذا الدين على ما دخل عليه الليل"⁽¹³⁷⁾، وفيه كناية عن انتشار الدين في أرجاء الأرض، إلى غير ذلك من الكنايات الجميلة التي يزخر بها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والتي تحتاج إلى مزيد

128 - انظر: الخطيب القزويني، التلخيص في علوم البلاغة بشرح البرقوق عبد الرحمن، فاروقى كتب خانه، اردو بازار، لاهور، ص 333.

129 - الجرجاني، الكنايات، ص 6.

130 - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج 11، ص 308.

131 - سنن الترمذي، ج 4، ص 638.

132 - الزبيدي، تيسير الوصول، ج 2، ص 255.

133 - الشريف الرضي، المجازات النبوية، ص 52.

134 - المصدر السابق، ص 403.

135 - المصدر السابق، ج 3، ص 117، و ص 45-47.

136 - انظر: ابن الاثير، المثل السائر، ج 1، ص 117.

137 - المصدر السابق، ص 319.

من البحث والتفصيل والتحليل، لمزيد من الكشف عن مواطن البيان والجمال فيها ولكن المقام هنا لا يسمح بمثل هذا التفصيل.

ومن أنواع المجاز، المجاز المرسل الذي تكون العلاقة فيه غير المشابهة⁽¹³⁸⁾، وفي أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم نماذج رائعة له من مثل قوله عليه السلام: "اليد العليا خير من اليد السفلى.." ⁽¹³⁹⁾ وقد تم التعبير بالجزء وهو اليد وأريد الكل وهو صاحبها⁽¹⁴⁰⁾. وقوله صلى الله عليه وسلم: "من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إرب منها إرباً منه من النار"⁽¹⁴¹⁾ وفيه تصوير بالمجاز المرسل في "من أعتق رقبة مؤمنة" أي عبداً فذكر الرقبة وأراد الجسم كله. وقد ورد استعمال هذا المجاز المرسل الأخير في القرآن الكريم أيضاً.

ومن أنواع المجاز كذلك، المجاز العقلي وهو متعلق بالإسناد حيث يسند الفعل وما في معناه إلى ملابس له غير ما هو له في الواقع. ومن أمثلة ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "أخاف أن تصف حجم عظامها"⁽¹⁴²⁾ فقد أسند الفعل وهو الوصف إلى الضمير العائد إلى الثوب والأصل إسناده إلى الإنسان.. إلخ.

ولا ينبغي أن نغادر مبحث التصوير في بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن نشير إلى أنواع التصوير في هذا البيان الشريف، ويمكن أن نلمح إلى أبرز أنواع التصوير فيما يأتي:

أ- تصوير المعاني المجردة:

فعندما يثير النبي صلى الله عليه وسلم معنى من المعاني الذهنية المجردة فإنه لا يعرضها عرضاً ذهنياً تقريرياً وإنما يضرب لها مثلاً تصويرياً يمثلها ويجسدها لتتضح في القلب والعقل، على نحو ما نجد في حديث فرح الله بتوبة العبد حين يتوب، فهذا المعنى التقريرى يصوره النبي صلى الله عليه وسلم للمتلقى في صورة قصصية جميلة معبرة تنطبع في العقل والشعور، جاء في الحديث "الله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة، فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ

138 - انظر: عز الدين علي السيد: الحديث النبوي، ص 187، وما بعدها.

139 - الشريف الرضي، المجازات النبوية، ص 35.

140 - وهناك أمثلة كثيرة للمجاز في كلام الرسول صلى الله عليه وسلم، فمن أراد التفصيل فلينظر: أبو هلال العسكري،

كتاب الصناعتين، ص 284 وعز الدين علي السيد، الحديث النبوي، ص 187 - 204.

141 - صحيح مسلم، ج 10، ص 15.

142 - الشريف الرضي، المجازات النبوية، ص 166.

بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح" (143).

ويقوم الحديث الشريف بإبراز العواطف والانفعالات في صور بيانية من خلال سلوك الشخصيات ومواقفها في القصص التي يعرضها الحديث النبوي من خلال موقف الشخصية وتصرفها وما يدور في داخلها من مشاعر كما نجد مثلاً في حديث "أصحاب الأعداء" حيث يقوم الحديث بتصوير ما يدور داخل الغلام من قلق نفسي وهم يتقل كاهله وهو يتردد على كل من الساحر والراهب، حين وجد دابة قد سدت الطريق على الناس فحبستهم: "فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم، الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة، حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها ومضى الناس... إلخ" (144)، وانظر تصويرا لعاطفتي "اليأس" و"الفرح" في حديث الذي فقد راحلته (145).

ب- تصوير المشاهد والحركة والمواقف:

وهذا النوع كثير جداً في الأحاديث النبوية التي تعرض علينا المشاهد والمواقف في صورة حية، وكأنها ماثلة للعيان. ومن الأمثلة على ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتية وأنهاكم عن المنكر وآتية" (146). وجاء في حديث عن الجنة والنار، هذه الصورة الدالة على الحركة: "قال: أذهب إلى النار فأنظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فإذا هي يركب بعضها بعضاً... " (147).

فالتعبير هنا عن حركة النار وألسنة اللهب فيها تمتد يمينا ويساراً وتعلو وتسفل، التعبير عن هذا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "يركب بعضها بعضاً" تعبير في غاية الروعة التصويرية والجمال الأسر، وهي لقطة موفقة في نقل حركة النار وتلهبها.. " (148).

-
- 143 - صحيح مسلم، باب الخوض على التوبة والفرح بها، الجزء 13، ص 296.
- 144 - المصدر السابق، باب قصة أصحاب الأعداء والساحر، الجزء 14، ص 293.
- 145 - المصدر السابق، الجزء 13، ص 296.
- 146 - صحيح البخاري، ج 4، ص 147.
- 147 - سنن الترمذي، ج 4، ص 693-694.
- 148 - محمد بن حسن الزبير، القصص في الحديث النبوي، دراسة فنية موضوعية، جدة، ط 3، 1405هـ / 1985م، ص 170.

ج- تصوير الشخصيات:

يقدم الحديث ألواناً من الشخصيات البشرية ويصورها لنا من خلال سلوكها وما جبلت عليه من صفات وطباع كما نجد في حديث⁽¹⁴⁹⁾ "جرة الذهب" يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "اشترى رجل من رجل عقارا له، فوجد الرجل الذي اشترى العقار في عقاره جرة فيها ذهب. فقال الذي اشترى العقار: خذ ذهبك مني، إنما اشتريت منك الأرض، ولم أبتع منك الذهب وقال الذي له الأرض: إنما ابتعتك الأرض وما فيها، فتحاكما إلى رجل، فقال الذي تحاكما إليه: ألكما ولد؟ قال أحدهما: لي غلام. وقال الآخر: لي جارية: قال: أنكحوا الغلام الجارية وأنفقوا على أنفسهما منه وتصدقا"⁽¹⁵⁰⁾. فهذا الحوار بين الرجلين يصور لنا شخصية كل منهما ويبين لنا ما هو عليه من الورع والأمانة حيطة من الوقوع في الشبهات.

9- الموسيقى اللغوية:

إن للإيقاع الصوتي المنظم، الذي يحافظ على التناسب مع الإيقاع الداخلي لحركة المعنى أثراً كبيراً في النفس، وهذه الموسيقى اللغوية الجميلة دور في تصوير المعنى في إطار لغوي آخاذ مشرق. والموسيقى ليست خصيصة بالشعر وحده، فالنثر بحكم أنه مظهر لغوي له أيضاً هذه الطبيعة الموسيقية، بل إن موسيقى النثر في النثر من أهم وأبرز مظاهر الجودة فيه⁽¹⁵¹⁾.

ونظراً لتمكّن الرسول صلى الله عليه وسلم من الأداء اللغوي، وامتلاكه ناصية اللغة امتلاكاً كاملاً، وتأثره بأدبية القرآن الكريم جاءت تلك الموسيقى اللغوية في كلام الرسول صلى الله عليه وسلم على صورة مكتملة النموذج، متفردة الطراز، ثم إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان متوازناً في الفكر والعاطفة. والموسيقى اللغوية ظاهرة شائعة في الأسلوب النبوي، ويمكن تحديد معالم هذه الموسيقى اللغوية على النحو التالي:

1- موسيقى الألفاظ:

الألفاظ في الحديث تجيء ملائمة لفكرتها، مؤدية بجرسها ذاته للمعنى، يتحقق في صوتها التلاؤم المطلوب للمعنى المراد التعبير عنه، وهذا كثير في بيان الرسول صلى الله عليه وسلم، من ذلك مثلاً لفظة "يتتبع" في قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "الماهر بالقرآن مع السفارة الكرام البررة، والذي يقرأ

149- صحيح البخاري، ج 4، ص 212، وصحيح مسلم، ج 3، ص 1345.

150- نفس المرجع.

151- انظر: محمد رجب البيومي، البيان النبوي، دار الوفاء، المنصورة، 1407هـ/1987م، ص 249.

القرآن ويتتبع فيه وهو عليه شاق له أجران⁽¹⁵²⁾ فلا أدل من كلمة "يتتبع" هنا على تصوير ثقل النطق وتحمل المشقة في قراءة الكلمة. ومثل ذلك كلمة "يغرغر" التي تحكي صوت حشرجة الموت في الخنجرة، التي وردت في الحديث: "إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر... إلخ"⁽¹⁵³⁾.
كما أن لتسويق الألفاظ في الجملة الواحدة، أو في الجمل أثره الحسن في نظم الكلام وفي تحقيق النسق الفني فيه، وهذا واضح في كل كلام الرسول صلى الله عليه وسلم.

2- موسيقى الجمل والتراكيب:

ويتحقق هذا بتلاؤم الكلام وتناسق نظمه وتناسب فقره، وتوافق حركة الجملة مع الجملة والتركيب مع التركيبي، ليؤدي بإيقاعه الحسن صورة لفظية بالكلام عن الفكرة أو العاطفة موضوع التعبير، كما أن التلاؤم في الكلام يعدّ أثراً لتوافق الكلام مع حركة النفس⁽¹⁵⁴⁾. ونستطيع النظر إلى هذه الموسيقى في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال الظواهر البلاغية الآتية:

أ- السجع وتوافق الفواصل:

جاء السجع في البيان النبوي كثيراً⁽¹⁵⁵⁾، ولكنه كان صادراً عن طبع وفطرة، لا أثر للتكلف فيه، يعبر عن الإيقاع المتلائم داخل النفس النبوية، ويعكس تناغم الفكرة مع العاطفة من خلال تناغم صورتها اللفظية، وهو سجع سمح عذب جميل يختلف عن السجع المستكره الذي ذمه الرسول صلى الله عليه وسلم لا لأنه سجع، ولكن لأنه سجع الكهان لما يقوم عليه من باطل وما فيه من غموض، وما يهدف إليه من خداع وتضليل للناس⁽¹⁵⁶⁾.

فالسجع الفطري في حديث النبي صلى الله عليه وسلم يأتي منساقاً مع المعنى الحق سائراً في ركابه، واضحاً في بيانه، سهلاً في استيعابه، ممتعاً في إيقاعه، يتلقاه السامع أو القارئ في رضا وقبول بسبب ما فيه من الحسن والقبول، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "اللهم آت نفسي تقواها، وزكّها أنت خير

152 - صحيح مسلم، ج 1، ص 549، نشره محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

153 - الزبيدي، تيسير الوصول، ج 1، ص 86.

154 - انظر: أحمد حسن الزيات، دفاع عن البلاغة، ص 122، 123، 125.

155 - انظر: البيومي، البيان النبوي، ص 254. وانظر: العقاد، عبقرية محمد، دار الهلال، مصر، ص 76.

156 - انظر: محمد الصباغ: الحديث النبوي: مصطلحه، بلاغته، علومه، كتبه، ص 54، 55. وانظر: صحيح البخاري،

كتاب الطب، باب الكهانة عن قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "سجع كسجع الكهان". وانظر: ناذج من

سجع الكهان في جمهرة خطب العرب لأحمد زكي صفوت، القاهرة، 1381هـ، ج 1، ص 75-79.

من زكّاه، أنت وليها ومولاها" (157) ويقول: "تعوذوا بالله من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء" (158) ويقول: "يا أيها الناس: أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام" (159).. إلخ. وقوله صلى الله عليه وسلم: "اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها" (160). وقوله صلى الله عليه وسلم: "اللهم إني أسلمت وجهي إليك، وفوّضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجأ إلا إليك" (161).

ب- الازدواج أو التوازن:

وهو نمط في الكلام يقوم على توزيع الجمل توزيعاً متناسباً متوازناً، وذلك برصف الفقر في تناسق لفظي ومعنوي، يمنح الجمل إيقاعاً حسناً على الأذن وقبولاً حسناً في النفس (162). "والتوازن ويسمى الازدواج موسيقية فطرية في نفوس العرب جعلوا بها النثر أشبه بالنظم في جمال الرصف وحسن الإيقاع، فهو صفة من صفات الأسلوب لا تكاد تنفك عنه في جميع أغراضه ومختلف صورته.. فالازدواج على إطلاقه، والسجع على تقييده يؤلفان الموسيقى في الأسلوب البليغ منذ كان للعرب ذوق وللعربية أدب" (163).

وقد حفل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بكثير من أساليب الازدواج أو التوازن بين فقر كلامه وترتيبها وتقابل الفقرة مع الفقرة، وتوازن الفقرة مع الفقرة طولا وقصراً، فتتألف الأصوات في الكلام وتتجانس الفواصل محدثة إيقاعاً صوتياً ترتاح له الأسماع وتأنس به القلوب من مثل قوله عليه السلام: "إن الله تعالى كره لكم قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال" (164). وقوله: "إن الله تعالى

157- صحيح مسلم، ج 4، ص 2088.

158- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج 11، ص 513.

159- سنن الترمذي، ج 4، ص 652.

160- ذكره النووي في رياض الصالحين، ص 532، باب الدعوات.

161- انظر: صحيح مسلم، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، الجزء 13، ص 235، والبيهقي، شعب الإيمان، باب إذا أتيت مضجعك فتوضأ...، الجزء 10، ص 228، والنووي، رياض الصالحين، ص 57.

162- انظر: أحمد حسن الزيات، دفاع عن البلاغة، ص 127-130. و محمد الصباغ، الحديث النبوي، ص 75.

163- أحمد حسن الزيات، دفاع عن البلاغة، ص 128-129.

164- مسند أحمد، ج 3، ص 129، من مسانيد المغيرة بن شعبة، و جلال الدين بن عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي،

الجامع الصغير، القاهرة، 1373 هـ ج 4، ص 274.

يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها" (165). وقوله: "يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف" (166) وفي رواية: "احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً" (167). إن المتلقي يحس بهذا النسق الصوتي الجميل الذي يحافظ على الأبعاد في تنظيم النطق. "والازدواج في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم تنسيق للمعاني قبل أن يكون تنصيلاً للألفاظ بحيث يشعر القارئ أنه يترقى من فكرة إلى فكرة لا أنه يدور في فلك لفظي" (168).

ج- التجنيس:

ومن المظاهر البديعية ذات الأثر في تحقيق إيقاع الكلام، المجانسة بين الألفاظ في الجمل أو الفواصل من مثل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الظلم ظلمات" و"أسلم تسلم" (169)، وقوله: "الخيل معقود بنواصيها الخير" (170)، وقوله: "بسم الله توكلت على الله، اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أضل، أو أزل أو أزل، أو أظلم أو أظلم، أو أجهل أو يجهل" (171)، وقوله: "إن الله حرّم عليكم عقوق الأمهات ومنعاً وهات ووأد البنات، وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال" (172).

-
- 165- صحيح مسلم، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت، ج 13، ص 322، والنووي، رياض الصالحين، ص 12.
- 166- سنن الترمذي، ج 9، ص 56.
- 167- مسند أحمد، ج 6، ص 198، من مسانيد عبد الله بن عباس.
- 168- محمد رجب البيومي، البيان النبوي، ص 253.
- 169- ابن أبي الأصبغ، تحرير التحرير، المجلس الأعلى، 1383 هـ، ج 1، ص 105.
- 170- المصدر السابق، ج 1، ص 107.
- 171- سنن ابن ماجه، باب ما يدعو به الرجل إذا خرج...، الجزء 11، ص 352، ومسند أحمد، حديث أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، الجزء 54، ص 166، والنووي، رياض الصالحين، ص 58.
- 172- صحيح البخاري، ج 9، ص 78.

د- الطباق والمقابلة:

وهذه ظاهرة أخرى في أسلوب النبي ذات وظيفة إيقاعية خاصة، تحقق للكلام موسيقيته، فمن الطباق قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن الله عزّ وجلّ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها"⁽¹⁷³⁾، هناك طباق بين "الليل" و"النهار". وقوله صلى الله عليه وسلم: "اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن"⁽¹⁷⁴⁾ وهناك طباق بين "السيئة" و"الحسنة". وعن حذيفة رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول إذا استيقظ: "الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا"⁽¹⁷⁵⁾، والطباق بين "أحيانا" و"أماتنا" واضح.

ومن المقابلة قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع"⁽¹⁷⁶⁾. وهذا الحديث يشتمل على مقابلة بين "تكثرون" و"الفزع"، وبين "تقلون" و"الطمع". وروت عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم "عليك بالرفق يا عائشة، فإنه ما كان في شيء إلا زانه ولا نزع من شيء إلا شانه"⁽¹⁷⁷⁾ وهنا مقابلة بين "كان في شيء" و"زانه"، وبين "نزع من شيء" و"شانه". وهناك ألوان كثيرة جدا من البديع ذات أثر كبير في البناء الموسيقي للحديث، والاسترسال في ذكر الأمثلة لا يسمح به المقام لضيق الوقت ويمكن الرجوع إلى ذلك في كتب الحديث والبلاغة.⁽¹⁷⁸⁾

ه- الترتيب النفسي للكلام:

ليست موسيقى الكلام منحصرة في الألفاظ أو في المحسنات البديعية على اختلاف أنواعها ولكن تتحقق بغيرها أيضا" إذا رتب الكلام ترتيباً نفسياً يوافق اهتزاز المشاعر وتموجات النفس بأن يعبر الأديب عن خواطر تطرد وتتدفق منسجمة في نسق خاص، كأن سلكاً خافياً ينظمها نظم الدر، وهذا ما يعرف بالموسيقى الخفية، وأمارتها أن تستمع للأثر الأدبي يتلى عليك وراء أذنك المرفهة فإذا هي تصغي لنظم قد تماسك والتحم معنى بمبنى ومبنى بمعنى، ولو سكت القارئ فجأة دون إتمام مقاله الأدبي

173 - صحيح مسلم، ج 8، ص 100.

174 - البيهقي، شعب الإيمان، الباب 57، الجزء 17، ص 54 والنووي، رياض الصالحين، ص 47.

175 - صحيح البخاري، ج 8، ص 85، وانظر: النووي، رياض الصالحين، ص 125.

176 - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص 218.

177 - انظر: مسند أحمد، الجزء 50، ص 447.

178 - انظر ألواناً من البديع ساقها عز الدين علي السيد في كتابه: الحديث النبوي، ص 289-302.

لشعرت أن نشازاً حدث فانبثرت الموسيقى ابتكاراً قاطعاً، فإذا أتم الحديث لغايته فقد بلغ بك الطرب النفسي أقصاه، إذ رويت ظمأك بما ينقع الغليل. ومن المعلوم أن تنسيق الألفاظ تنسيقاً فنياً يكسبها معاني جديدة... "(179).

قال الرسول صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس: "يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا" (180).

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن الصدق يهدي إلى البرّ وإن البرّ يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً" (181). فنجد أثراً في نفوسنا وعقولنا معاً لهذا النسق الأدبي لعرض هذه المعاني، ونجد انسياقاً في تتبعنا لمراحل الحديث ينساب مع هذا العرض المنطقي المرسوم مع حركة بناء المعنى في النص نفسه.

الخاتمة:

بعد هذه الجولة الممتعة في المزايا الفنية للبلاغة النبوية يمكن لنا تقديم النتائج من البحث في

نقاط تالية:

- 1- إن الله أعد نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم وأتاح له الفرص والأسباب الفطرية الموهوبة والمكتسبة ما يجعله متمكناً من وسيلة البيان على الوجه الأكمل، وقادراً على البيان والتبليغ.
- 2- إن بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم من صنع الله، وما كان من صنع الله تضيق موازين الإنسان عن وزنه وتقصّر مقاييسه، لا ندرك كنهه، إنما ندرك أثره، ولا نعلم إنشاءه وإنما نعلم

179- انظر: محمد رجب البيومي، البيان النبوي، ص 249. وانظر: أحمد حسن الزيات، دفاع عن البلاغة، ص 125.

180- سنن الترمذي، عن ابن عباس، الجزء 9، ص 56، وانظر: النووي، رياض الصالحين، باب المراقبة، ص 48.

181- صحيح البخاري، باب قول الله تعالى: يا أيها الذين، الجزء 19، ص 45 وصحيح مسلم، باب قبح الكذب وحسن

الصدق وفضله، الجزء 13، ص 14، والنووي، رياض الصالحين، ص 38-39.

- خبره على حد تعبير الأستاذ حسن الزيات.
- 3- إن الاستقصاء الكامل لمزايا البلاغة النبوية أمر في غاية الصعوبة لتنوع موضوعاتها وضخامة كيفها وكمها، ولذا يود الباحث إلقاء نظرة متعمقة إلى بعض المزايا الفنية.
- 4- البيان والوضوح سمة أساسية وميزة خصوصية لكلام الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه أرسل مبيّناً أحكام ربه سبحانه وتعالى وشارحاً ومفسراً لها، ولذا كان صلى الله عليه وسلم يتجنب من جميع أسباب الغموض والإبهام، وكان يراعي حال المتلقي ويلقي كلامه حسب حاله ويراعي مقتضى الحال ويستخدم الأساليب المتنوعة حسب تنوع المخاطب والمقام.
- 5- كان الرسول صلى الله عليه وسلم يمتلك ناصية اللغة وعنده مقدرة فائقة في التشقيق من الألفاظ وانتزاع المذاهب البيانية حتى جاء بألفاظ وتراكيب كثيرة لم تسمع من العرب قبله، وهي كثيرة وتعدّ من حسنات البيان كما أنه صلى الله عليه وسلم أوجز الناس كلاماً بحيث يأتي بألفاظ وتراكيب قليلة المبني كثيرة المعنى لأن عنده قوة في التعبير وامتلاء في اللفظ وشدة في التماسك، وهذه شروط أساسية لتقديم الكلام موجزاً ومن هنا شاعت جوامع الكلم في خطبه وأحاديثه حتى عدّت من خصائصه.
- 6- يوجد في كلام الرسول صلى الله عليه وسلم التسلسل المنطقي والدقة والإحكام، كان صلى الله عليه وسلم يقدم كلامه بكل ربط وتسلسل ويستخدم ألفاظاً وتعبيرات دقيقة ومحكمة حتى يقتنع المخاطب اقتناعاً كاملاً ويفهم المراد فهما صحيحاً. ويتجنب عن كل أسلوب ينافي تحقق التسلسل المنطقي والدقة.
- 7- استعمل الرسول صلى الله عليه وسلم في أسلوبه أسلوب المجاز بكل أنواعه من التشبيه والاستعارة والكناية والوصف، وفي كل هذه الأساليب جاء كلام الرسول صلى الله عليه وسلم بتراكيب لا نظير لها في تاريخ اللغة العربية. وتعدّ هذه الإضافات تفوقاً بيانياً وقدرة نادرة في امتلاك المقدرة اللغوية والحسن البياني المرهف.
- 8- إن هذا البحث ما هو إلا إشارات موجزة إلى بعض أهم المزايا الفنية، ولا يمكن أداء حق الموضوع في مثل هذه العجالة نظراً لقلّة باع الباحث ولغزارة الكلام النبوي وتسنّمه قمة البلاغة النبوية البشرية فناً عظيماً وبياناً بليغاً. وسيظل هذا الموضوع في حاجة على الدوام لمزيد من البحث والنظر والتأمل والتفصيل.

9- إن الأحاديث النبوية تحتل مكانة ثانية بعد القرآن الكريم، وأن هذا التفوق البياني والجمال الفني يقتضي التأمل الدقيق والتدبر العميق في المزايا الفنية والمحاسن الأدبية ليتأسى المسلم أسوة الرسول صلى الله عليه وسلم في أدبه وتعبيره ويقدم بمهمة الدعوة إلى المكارم والاجتناب عن الرذائل بأسلوب جميل ممتع.

أخيراً نتضرع إلى المولى عزّ وجل أن يرزقنا اتباع سنة الرسول صلى الله عليه وسلم في مجال القول والفعل وميدان الدعوة والسلوك. اللهم آمين.
